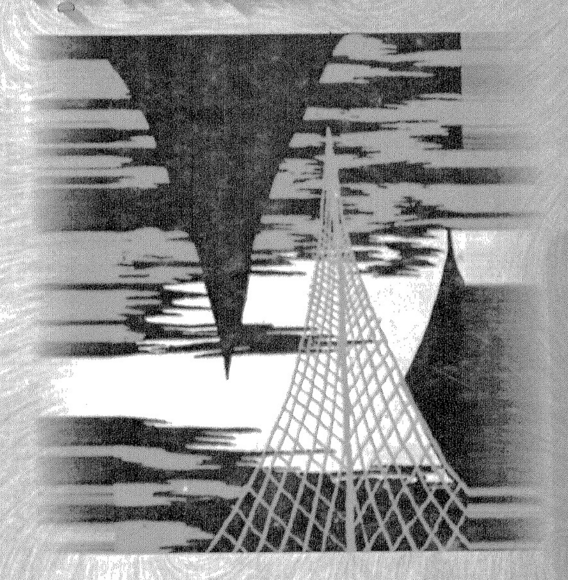
ليلى صايا سالم

أنشودة للموت.. أنشودة للحياة



قصص للفتيان

إهـــــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

الإشراف الفني زهير الحمو

ليلى صايا سالم

أنشودة للموت.. أنشودة للحياة

قصص للفتيان

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

أنشودة للموت . . . أنشودة للحياة : قصص للفتيان /
ليلى صايا سالم . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . -
٨٨ص ؛ ٢٠ سم .

١- ١٠ر٨١٣ ص ا ي أ   ٢- العنوان
٣- صايا سالم   مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٧٣٩ / ١٠ / ١٩٩٩

العـــائـد

-١-

لاأدري كيف حدث هذا! كيف امتلكتُ حسّ السمع وأنا الميت منذ . . لاأعرف منذ متى كان موتي. كل ماأعيه الآن أنني ألتقط نداء له رائحة الاحتراق، نقلني من سباتي إلى يقظة الحياة، وألهب فيَّ رغبة امتلاكها. . عندها شعرت بموتي الذي كان، ويحفرة تقيّدني وتفرض عليّ أسراً لاأطيقه.
النداء واضح، يصخب في سمعي، يرمم حواسي كلها. أراه، ألمسه، يتوثب في داخلي، يستحضر سنين عمري السابق، ويطلق أحلامي القديمة، فأحس بالوجع، . . كيف يأتي الوجع إلى حيث يفترض مكان للراحة والسكينة، ومعه كل هذا الشوق لأن أمارس شعائر الحياة. . . أستنشق الهواء، أركض تحت الشمس، فوق العشب، أرى إنساناً، أنظر في

عينيه، أحتضنه، أسميه، ينادي عليّ باسمي، ألبّي ذاك النداء الذي له رائحة الاحتراق. . . وأبكي. .

تهدهدني الأرض مستغربة، فتعود أحاسيس البنوة، وأتذكر أمي التي كانت تحضنني طفلاً كلما بكيت. في حضنها أهدأ، وأقبل أن تؤجل أحلامي المحبطة، والتي تبدو دائماً في مناخ عوزي وواقعي الشقي، بالغة الطموح وعلى مشارف المستحيل.

تسألني الأرض مشفقة: ماالذي أيقظك؟ كيف تأتّى لألم حارق أن يوصل ميتاً إلى حدّ البكاء؟!

«سمعت نداء له رائحة الاحتراق وطعم العذاب. أطلقيني إليه، امنحيني حياة، كما تخصبين البذور، في طقس تجدد الحياة».

لدهشتي، يسري هسيس رطب ويلفني، فتغمرني دفقة من الانتعاش. تنتش عظامي وتبرعم، ثم يستوي جسدي. تمسح أمي على شعري فتعاودني الأحلام. تفارقني الغصة التي جرعتني إياها حفرتي. يتراخى التراب حولي، ويبتعد عن أن يكون مرصوصاً كتيماً. تلفح وجهي نسمة هواء، فتجيش في داخلي رغبات الحياة كلها. أنهض، يتراجع العتم في طريقي والتراب. وفي لحظة أجد نفسي معلقاً بين سماء مرشوشة

بالنجوم، وفضاء لاحدّ لرحابته، فأشهق. أغمض عيني، وأرشف كل هذا الجمال الذي أُعطيت بسخاء.

فجأة أسمع صرخة. تثقب الصرخة ذاكرتي وتستحضر قبحاً قديماً. صرخة عُواء واحدة تلوّث هذا الحضور الرائع للكون.

أفتح عيني، أتلفت حولي. المكان معتم، ومع ذلك أرى ظلالاً لأشجار تتشابك، ونبتات تتوارى خلف أحجار مرصوفة. أعجب كيف يكون للأشياء ضوؤها الخاص، يفيض من داخلها، ومن نور شفيف تعكسه السماء وتكشف به عن نفسها. أرفع رأسي.. السماء ساكنة ومضاءة بالنجوم. يتدفق النداء الذي له رائحة الاحتراق، كأنشودة تمجد الحياة يطلقني.. سألحق به.. ألبيه.

وينفجر ضوء صاعق يغيب السماء، ويمسح كل ماحولي. أرفع يدي أداريه، وأغطي بهما عيني... يصخب النداء.. أتلمس طريقي بيدي.. سأنطلق وراءه حتى آخر العالم.. وخزة حارقة تنفذ إلى صدري.. خدر ينسل في جسمي وئيداً.. تعب قديم لاأقدر... لا...

-٢-

يقف في فراغ المكان وصمته. يشرع أذنيه ويشحذ سمعه.

يسوق إليه الهواء إشعارات لاحدود لها، ويلقيها أمامه. لايكترث بها كلها.. اشعارات فقط، لها صفة الانذار، هي مايهمه، ولم يخطئ مرة في التقاطها. تدريبه الذي لم يهدر عبثا، أوصله إلى مهارة قنص كل غريب خطر له أن يقتحم هذه المملكة. ليس الأمر صعبا، إنه في غاية البساطة، فأسلحته موجودة دائما. هي جزء منه، ولايكلفه إشهارها سوى تكشيرة وهمهمة ثم انقضاض. نادرا مايخوض بكل أسلحته وغالبا مايبدأ بأهونها حين يثير الموقف ريبة، كأن يلتقط صوتا لم يألفه، أو همسا، أو وقع أقدام. عندئذ يثبت في مكانه، ويطلق صرخة عواء واحدة.. واحدة فقط تحقق مأثرة الهرب أو الصمت.

في قلب السكون يسمع شهقة. تبقى الشهقة معلقة كلحظة قاطعة تحسم مصيرا، ثم تتلاشى في الفراغ. شهقة خافتة متناهية عند حدود الصمت، ولكنها أيضاً مدوية ومثقلة بالخطر. يحيره الموقف. هي لم تأت من خارج السور، فلم يلتقطها حين عبرته، كيف جاءت في فضاء لايسكنه غير موتى. هو وحده من يحرس ليل هذا الفضاء، ومعه سيده في بيته عند الزاوية الجنوبية، قرب الباب الحديدي، الذي يفتح فقط، أمام موتى وافدين، وفي الليل يوصد بقفل ورتاج،

وجرس انذار تلقائي ينطلق حين يتعرض الباب لضغط أو زحزحة قد تفضي إلى فتحه.

يتململ في وقفته مترددا. الحيرة ممنوعة.. هكذا تعلم في التدريب. الحسم هو النجاح. ينهي تردده ويطلق صرخة عواء واحدة. يتقدم بخطى حذرة، مصغيا، ناقلا عينيه اللتين اعتادتا الرؤية في غبش الليل.

يلمحه واقفا هناك يتلفت كشبح أفلت من أحد القبور. يدهشه الأمر. لم يحدث مثل هذا من قبل. تمر لحظات، وعليه أن يتصرف بسرعة. تتدفق غريزته المدمرة، تتوثب في أطرافه وفكيه، وتدخله اللحظة التي تسبق رعشة القتل.

فجأة ينقض الضوء الساطع، يهاجم الضوء عينيه، فيغمضهما ثم يفتحهما مقاربا جفونه، مفسحا لهما امكانية رؤية واضحة.

يرى سيده واقفا أمام الباب بمنامته المخططة، وبيده مسدسه.

تعلق عيناه بشفتي سيده وهما تتكوران، يتحفز لسماع الصفرة المعتادة التي تحمل أمر الانقضاض وحكم الموت... ولكن.. هاهما الشفتان تسترخيان، فتتراجع الصفرة، وتتقافز فوق الشفتين شهوة عارمة للافتراس.. هل يفعلها بنفسه؟!

-٣-

هو جالس على طرف السرير يتناول الرشفة الأخيرة من مغلي النعناع. هذا الشراب الساخن اليومي يدمنه، ولايقدر أن يستغني عنه، يهدئه، ويضعه في لحظة الولوج إلى النوم. وعلى الرغم من الهدوء الذي يلف المكان، إلا أنه يلتقط دائماً همساً يثيره عادة، ولكن لايوصله إلى القلق المؤرق، ولايُقصي طمأنينة يدين بها لكلبه المدرب.

صحيح أنه كلب شرس، وأنه قد يخطىء في التقدير، إذ يزهق روحاً في ظرف لايقتضي أكثر من خدوش، إلا أن هذا لايثير حنقه، طالما أن السكينة والأمان هما ما يتحقق في النهاية.

ينهي شراب النعناع. يضع القدح على طاولة قرب السرير. يتمدد في فراشه، ويسحب الغطاء. يلامس جسد الأنثى الغافية قربه، فيحضنه ويلتصق به.. يغمره شعور بالدفء والرضا. يغمض عينيه، ويستسلم لخدر يسحبه وئيداً.

فجأة يتناهى إليه صوت كالشهقة الخافتة، ثم تتلوها صرخة عُواء. تضعه الصرخة في اليقظة التامة. ينتر الغطاء. يسحب المسدس من تحت الوسادة، يمرق إلى الباب الخارجي، يفتحه وينتصب أمامه مشهراً سلاحه.

يخوض ببصره في العتمة الساكنة. يلوح له مايشبه إنساناً واقفاً يتأمل النجوم، غارقاً في الصمت، ومصغياً إلى صوت ما. . أتراه يسمع ذاك النداء؟!

يمدّ يده ويضغط زر الأضواء الكاشفة. تحت الضوء الفاضح يراه مرتبكا يهتز كقصبة داهمتها الريح، يداري عينيه بيديه. يعجب إذ يراه شبحاً هزيلاً، عارياً، وحائراً تحت وطأة نور فضائحي مبهر، بلا مقاومة ولاسلاح. ومع ذلك يثير الشكوك. هل هو تائه؟ أبله؟ أو ربما هو ميت عاد إلى الحياة؟ يعبس لهذا الخاطر يغزوه فجأة. . هو بعيد الاحتمال، فلاسابقة له في حدود خبرته. . ومع ذلك يثير قلقه كما لو أنه نذير يهدده في الصميم. ماذا سيكون شأنه، وهو السيد هنا، لو أن تغيراً أصاب سيرورة الحياة والموت، فقلبها، وجعل الموت منطلقاً للحياة؟! ماذا لو هبّ الموتى من قبورهم وعادوا أحياء؟! يحاصره خوف غامض كملك يهدد بضياع عرشه، ويغضب لضعف مخاتل، يحط ويغيب، يجعله يتساءل، يلغو، ويتردد. يحسم أمره. . فهذا الواقف هناك حيّ يشهق، ويتأمل ويسمع ويداري بيديه، في فضاء لايمارس فيه الأحياء غير شعائر الموت.

يلمح كلبه متحفزاً كقنبلة تنتظر من ينزع فتيلها. يكوّر شفتيه. تفيض الشهوة المدمرة وتغرقه، فتتعثر الصفرة، وتنفرج الشفتان.

يصوب المسدس كاتم الصوت..

ويطلق.

-٤-

يتهاوى على الأرض، متوسداً فراغاً صغيراً، يتخافت النور في عينيه، وتهاجمه عتَمَةَ خانقة، وتعب لايقاوم. تبتعد السماء والأشياء، وتغور كماضٍ سحيق. يترجّع ذاك النداء الذي له رائحة الاحتراق، في اللحظة التي يتساقط فيها فوق العالم، حزن كتيم.

تغيّبه الأرض في جوفها. تدثره بالتراب. تلفه بوعود سخية، وتقسم له بكل طاقات خصوبتها، أن تعيده في الزمن الآتي، في طقس تجدد الحياة.

تداعيات صباحية

تنهض متثاقلة. . . دوار خفيف اعتاد أن يهاجمها في الصباح. قد يكون الأرق سببه، وقد يكون علامة مرض تهرب منه ولاتريد أن تعرفه. . . تكثر من الهرب. . . يقولون إن الهرب سبيل سهل يُقْدم عليه كل من فَقَدَ الوسيلة والطريق. . . «أعرف الوسيلة والطريق، ولكني أفتقد الشجاعة» تقول لنفسها وهي ترمي بجسدها على كرسي أمام النافذة.

النافذة تطل على شارع عريض يفصلها عن الحديقة العامة. أمامها وتحت ناظريها تترامى الحديقة. . . الأحواض المنسقة، وكذلك البرك ونوافير الماء. سور المجرى الحجري يشير إلى وجود نهر كان يتدفق يوماً. تتأمل المجرى وتشفق على النهر. . . وقع في الأسر، احتجزته جدران عالية سرقت تدفق مائه وحياته. على أبواب المدينة صار راكداً، وفي الحديقة توقف جريانه ولم تعد السماء تعيره لونها ولا الأشجار.

«الأسر أقسى من الموت». تبتسم لهذه العبارة. . . «لقد صرت حكيمة».

تسمع صوت تدفّق رشاش الماء في الحمام. يغزو الماء وعيها. . . رذاذ. . . مطر. . . طراوة ونقاء.

إنه يغتسل. . . كل صباح يغتسل. قال لها مرة بتباه: مازلتِ نقية. . . أما أنا فملوّث حتى نقيّ عظامي، وهذه إحدى فضائلي.

يومها أشفقت عليه وجدار من صقيع باعد بينهما.

يتوقف صوت رشاش الماء. تسمع خطوات تنقله بين الحمام وغرفة النوم. تقترب الخطوات تسبقها رائحة عطر أجنبي.

يقترب منها ويطل فوقها. لاكلمة. . . لالمسة. . . لاترفع رأسها.

تجفل حين تهوي رزمة أوراق نقدية في حجرها، وجدار الصقيع يطبق عليها.

تسمع ضحكته. . . لقد فزتُ بها. . . فزت بالصفقة. . . اشتري ماتشائين.

من النافذة المغلقة تتسرب رائحة الماء الآسن في النهر. . . ومن رزمة الأوراق تفيض رائحة كالعتم الكثيف.

لاترفع رأسها لاتنظر إليه. . . «أعرف أنك فزت بها».

تفرقع ضحكته . . . «تعرفين! كيف؟ الصفقات أحد أسراري»

تتناءى آخر كلماته، ثم تضيع في اللحظة التي يصفق فيها الباب.

تأتيها الخادمة بفنجان القهوة الصباحي. تهاجمها الرائحة الآسنة . . . «هل تشمين ياسعاد»

تغمض سعاد عينيها وتستنشق منتشية . . . «عطر آسر ياسيدتي».

تضحك في أعماقها . . . لاأحد يشم الرائحة الآسنة! .

من النافذة تلمحه ينطلق بسيارته . تتناول فنجان القهوة . تاريخ طويل لصفقات عديدة تتدافع صوره وتتلاحق تباعا . . . بداية كل صفقة . . . تنامي المساعي، وتسارع إيقاعها . . . وأخيراً الفوز الذي يتوج المسار . . . لاشيء ينسى . . . اندفاعاته، ردود أفعاله إشارات توحي من غير حاجة لكلمة أو تساؤل . . . في البداية يصاب بحمى تبدله وتعطي أهواءه ومصالحه السلطة والقرار . . . تجعله بارعا في التبرير . . . يلوي أعناق الحقائق، ويدفع بالوقائع في غير مساراتها، وفي النهاية يكون كل شيء طيعا يوصله إلى مايريد.

لاشيء ينسى . . . أقنعته الكثيرة تتقافز أمامها. أقنعة لكل الأدوار، تتناوب الآن فوق وجهه . . . متسامح، حقود، صادق، منافق، شريف، مرتش . . . وتتراكب الأقنعة . . . تصير وجهه. تغمض عينيها، تبعد الصورة. يهاجمها وجهه ويهمس . . .

«أنا العالم».

تتساءل مستسلمة . . . لماذا يفوز؟ لماذا تنجح اللعبة دائماً؟ . .

يوم يفوز يعود إلى البيت مستثارا، ثم مغتبطا غبطة صوفي نال الوصول . . . يأكل، يشرب، ينتشي، ويشتهي بضراوة.

تفقد القهوة إغراءها، تبعد الفنجان . . . . «وأنا أدفع الثمن استلابا وغربة في الجسد والروح، وأنال في الصباح نقوداً».

تبعد النقود عن حضنها، وتشعر بحزن عميق قديم . . .
حزن لا عمر له، ربما وجد قبل أن تولد . . . ربما قبل العالم.

مع الأبخرة تستعيد القهوة إغراءها، فتمسك بالفنجان وترشف. ينهض من الذاكرة لحن لفيروز يمجد الصباح والقهوة ووجه الحبيب. فجأة يشرق في داخلها . . . تتململ . .

تستسلم لحقيقة أنه يحيا في أعماقها، ورغما عنها. لاتنكر أنها تتجاهله، تغيبه فينطوي ويغيب. ولكن فجأة، في ظل منعطف، أو رائحة زهرة، في معنى كلمة، أو لحن فيروزي، تستعيده دفعة واحدة، متدفقا، محبا ونقيا.. وتنقلب الأدوار.. يكبر هو، وتنفذ الحياة منه إليها.. تنتعش، تنشط، تعود إلى الكتاب، وإلى الطبيعة.. وتحلم.

«ياأيها الحلم الذي لم يتحقق».

يعود الحزن ويجتاحها. يغوص وينبش الذكريات، ومعه الماضي.. كل ماحدث وانتهى، وكل مالم يحدث وظل باقياً في النفس وله طعم الأسى. يثقل الشعور بالزمان، باللحظة التي تحققت ومضت ولن ترجع، واللحظة التي لم تتحقق وصارت حسرة جاثمة.

تدمع العينان.. «أحببته.. كان نقياً ومستقبلاً مشرعاً.. ومذ التقينا حمل إليّ الحب، والحلم. وعشق الكلمة».

هما في المقهى الصغير المنزوي يثرثران، يقرآن، وينثران الأحلام والكلمات..

تقول، معك يصير الحاضر فسحة لاحدود لها، يصير مستقبلاً. ويقول، معك، الآنُ لحظةٌ حبلى بآنات لاحقة.. اختراق لآفاق جديدة.

«من يملك المستقبل لايهرم أبداً. . الشيخوخة ماأنا فيه. . يقظة الماضي وحضوره الطاغي، والتهامه لكل أبعاد الزمان. هذا ماأنا فيه. . أنا الماضي».

تسرح ببصرها من النافذة. أمامها تستلقي الحديقة والمدينة التي لم يستيقظ صخبها بعد. تكتسي المدينة وجهه. «أحببته من خلال مدينتي كلها. . حديقتها، أزقتها، وأرصفتها. . امتزج بكل فصولها. . تنفست معه حياة ملايين البشر الذين عاشوا فيهامنذ قديم الزمان. ولكن الحب يحتاج لمن يدافع عنه، وأنا امرأة لاتستحقه، فقلبي مثقل بخوف قديم لاعمر له.

خوف؟! هل كنت خائفة حقاً؟ والمال!. وبريق المكانة، ألم يكن مبهراً!؟

يفاجئها السؤال. . يحيّرها. . تحسّ فيه ريبة مخاتلة. شكاً واتهاماً.

«ولكنني كنت في دوّامة، وحين صحوت كان قد رحل. أضعته، لم أعد أراه. لم أعد أسمع عنه. معه أضعت نفسي. أتسكع في الطرقات، أدور في الحدائق، أقف أمام المكتبات، أحدّق في وجوه الجالسين في مقاهي الأرصفة وفي الطرقات، أطوف على المعارض، أسأل الأصدقاء القدامى. . أسأل الغيوم، الليل، النجوم. . .

لاأحد يعرف. أحاول أن أنساه، وأغيّبه، وفجأة في ظلّ منعطف، أو رائحة زهرة، في معنى كلمة، أو لحن فيروزي، ينهض في داخلي دفعة واحدة».

تجفل حين تسمع صوت رنين الهاتف. لاترفع السماعة.

ومن النافذة تتسرب الرائحة الآسنة، وتهبط في الغرفة كالعتم الكثيف.

الصمت والصراخ

أطفأت المصباح واستلقيت. غابت الأشياء في العتمة، ولكنها بقيت في احساسي تضغط بإلحاح لامثيل له. شعرت أني محاصر، ولم يعد في وسعي أن أبقى مستلقيا. نهضت. أضأت المصباح. تراجعت الأشياء الى مواقعها واستعادت أشكالها وألوانها. ارتديت ثيابي وخرجت الى الشارع. كان جسمي كثيفا، ولم أكن أفكر بشيءعلى الاطلاق.

الشارع خاوٍ. في الليل ينام الناس وتستيقظ الأشياء.. يندفع الهواء، تقترب النجوم، تشتد صلابة الاسفلت، ويترجع صدى الخطوات رنينا صافيا. بحثت في طريقي عن بقعة خضراء، كنت جائعاً للرائحة الندية. عبرت الى شارع آخر. في طرفه كانت ثمة حديقة صغيرة، لم أشأ أن أدور حولها بحثا عن بابها، قفزت فوق سورها ووجدت نفسي ممدّداً فوق ترابها. واذ لامست التراب نفذت إليّ طراوة الأرض عذبة كجسد امرأة. اشتهيت جسد حبيبتي الذي

لاأعرف. «رأيتها تجري في الحقول. تتوقف وتنحني لتقطع نبتة من جذورها ثم تدسها في سلة صغيرة. تبعتها ثم اعترضت طريقها. توقفت ونظرت اليّ. لم تكن خائفة. عيناها مضيئتان، وجهها شاحب ولكنه يفيض بكل امكانات الحياة. أمامها شعرت أنني أمتحن وعليّ أن أختار. كل ماحدث بعدئذ لم تُقل فيه كلمة واحدة. مددت يدي نحوها. أعطتني سلتها لأحملها. . تناولت السلة وأدركت أنني أختارها وأنها منحتني نفسها. سألتها عن اسمها. لم تجب. نظرت اليّ وأدركتُ حماقة من يريد أن يولج فرح العالم في كلمات لاملامح لها. لم تعد بي حاجة لأن أسأل، فقط نظرت اليها وتألق كل شيء.

«أنا ذاهب الآن وسأعود» قلت هذا حين تركتها

«لاتذهب»

«سأذهب وسأعود اليك خصبا وابداعا وواقعاً مفعما بالاثارة».

«لاتذهب أرجوك»

«سأجوب المدن وأعود محملا خبزا وبريقا ورؤى ملونّة»

تركتها ومازلت أجوب المدن. أضرب في شوارعها بحثا عن الرغيف والبريق والرؤى.

* * *

نهضت وغادرت الحديقة. عدت أجوب الشوارع وأغتسل بهواء الليل. هدأت المدينة وهجعت باطمئنان عجيب. أحسست وهواء الليل يغسلني بخدر يدغدغ وعيي. لم يعد جسمي كثيفا وفقَدَ العالم صلابته. اندفعت خطواتي.. ركضت في الشوارع.. اجتزت المسافات.. عبرت حقولا وقرى ومدنا.. أضاءت الرؤى. أمطرت الغيوم خبزا.. أكوام من الخبز تفوح منه رائحة الأرض والنار والجسد الفتي. اقتربت ومددت يدي لأتناول رغيفا. لامسته. كان دافئا كعصفور صغير. ارتعشت سخونته في يدي وسرت في كل أعضائي. أدنيته من فمي. سمعت صوتا مخرشا:

– اترك الرغيف.

قلت بجزع:

– انا جائع.

– لن يأخذه الا من يستحقه

صحت بفرح:

– أنا أستحقه لأني جائع.

- ادفع لتناله .

- وماذا أدفع .

- ثمنا، نقودا .

- انا لا أملك نقودا، اطلب ثمنا آخر . . امنحني فرصة أن أمتلك رغيفا .

- حسنا قل لي ماذا تملك ماهي مؤهلاتك؟

- أملك حبا للعمل، وقدرة عليه، وحرصا عنيدا على البقاء . عملت في الأرض وحبها عالق بي كما الروح بالجسد، أسمع في الليل نداءها وأتوحد معها لدرجة العذاب . لي حبيبة تهوى الركض في الحقول وتنتظر أن أعود . لي أب ينتظر المطر كل شتاء . أكتب شعرا وأحمل في قلبي حبا للعالم . . كل العالم، من عرفت فيه ومن لم أعرف . . لي . .

- لاتتابع، يكفي ماذكرت . كل ماتملك لايجدي . سأمنحك فرصة أخرى . قل لي مالذي لاتملكه؟

- أحب البحر ولكنّي لاأعرفه . أعرف السماء ولكنّي لاأستجديها . لست قويا فأنا أضعف لرؤية طفل يبكي بحرقة . لاأكذب، فمتى عرفت الحقيقة لاأقول مايخالفها . . لا . .

- آه ياغبي . . ماتملك وما لاتملك لايجعلانك في عداد من يستحق أن يأكل رغيفا .

في يدي شحب الرغيف واستكان باردا. تركته ومضيت. عبرت مدينة أخرى. رأيت أناسا يتجمعون، ركضت اليهم. فضولي دفعني لأن أحشر جسمي بين الأجسام. شعرت بالاختناق ولكنني تابعت دفع جسمي، كنت أريد أن أعرف مايحدث. كانت ثمة فتاة تقف في الوسط. رفعت الفتاة وجهها ووجدت نفسي أواجه بعينين مضيئتين. انسفح الضوء. فسحة من الضوء كبرت وغمرتني. تراجعت الأجسام والوجوه، لم يعد ثمة من وجود آخر سواها. . وحدها حبيبتي انتصبت ببهاء.

صحت كمن تلقى ضربة موجعة:

- ماالذي أتى بك وماذا تفعلين؟

- اقتادوني ليبيعوني.

- هذا محال، فزمان بيع الفتيات أصبح مغرق البعد في ذاكرة الشعوب. كان هذا مخزيا يوما ومضى، والتاريخ يأبى ان يعيده ثانية. قولي صادقة ماذا تفعلين هنا؟

قالت بحزن:

- ثمة من يولع باللعب في الزوايا المعتمة من الماضي يريد أن يعيدها ثانية للحياة، أقول صادقة: يريدون بيعي

مددت يدي وأمسكتها. قلت:

- هيا نبتعد من هنا.

فسحة الضوء تراخت. تقدمت الأجسام وضغطت. فسحة الضوء تلاشت، وحيث كانت، نما شيء قاتم وكتيم ملأ المساحات وسدّ المنافذ. شددت قبضتي واندفعت بها نحاول الإفلات. همستْ:

- أكاد أختنق، لن يدعونا نذهب. ارحل انت واتركني، لاخلاص لي انظر ماذا يفعلون.

نظرت الى حيث أشارت بعينيها. كانت ثمة منصة تقام. امتدت أيديهم وقبضت عليّ، تشبثت قدماي بموقعيهما على الأرض. شددت على يدها. همستْ: يريدون بيعي

تلقفتني الأيدي انتزعتني ووضعتني فوق المنصة.

أعلن صوت مخرش:

- المزاد.. الآن يبدأ المزاد..

صمت الجميع ونظروا اليّ. عرفت أن عليّ أن أدير المزاد.

بقيت صامتا. أصغى الجميع، واذ بقيت صامتا امتدت أيديهم تهزني وتطالبني بأن أبدأ. نظرت في وجوههم. كانوا باعة وشراة. سمعتهم يتكلمون، قالوا أرقاما.. كبرت الأرقام وتداخلت، لوحت الأيدي بالنقود، بالخبز الساخن، والبريق والرؤى الملونة ثم اختلط كل شيء. صار زوبعة من الجنو

والارتعاش واللاتوازن. شعرت أني أُقتلع وأوشك على الدخول في لحظة الانهيار. تطوحت. في أعمق أعماقي اتقد وجهها الحزين. انتفضت. وخارج لحظة الانهيار طفرت. استقمت واستعدت صحوي وتوازني.

وبقيت صامتاً.

امتدت الأيدي. في البداية شعرت بهزاتها قشعريرة تراوح فوقي، ثم أهوت قبضاتها ضربات فوق رأسي وجسمي. انتفضت وانكفأت على وجهي. من جسمي الذي أرعشه الغضب والبرودة تدفق شيء حار. أوثقوا يدي ورجلي. تلاحقت الضربات. قاومت وتألمت. سمعت صوت حبيبتي. . احتجت، قاومت ثم بكت. في جنبي انغرس صوتها حارقا مدمرا. توهج ألمي. التصقت بالأرض. نفذت الأرض اليّ صلبة ملتهبة. أصغيت، سمعتها تبكي وتتشقق جروحا. في جنبي انغرست جروحها واخزة مدمّاة. كبر الوخز. تغلغل عميقاً والتهب. وفي داخلي، في ركن قصي منه كان شيء ماينفجر.

صرخت، وانطلق صوتي في الفلوات والبراري يلتهم الآفاق، يصعّد في السماء، وينفذ الى الأرض، ويحرق مابين السماء والأرض.

الحب والبحر

أقف قرب الشاطئ أنتظرها. أراهاآتية وألق ابتسامتها يضيء الفسحة بيننا.

إنها لاتتأخر، دائماً تأتي في موعدها، ونفحة من الرقة والحنان تواكب اقتراب خطاها. نمشي على الشاطئ المغسول بالأمواج. أشعة الشمس الغاربة تتشبث بالأفق وتلهبه، والهواء المحمّل بطراوة المساء والبحر يدفعنا دفعاً رفيقاً. ومع خطونا الهامس فوق الرمال تعود الحياة لتنبض في داخلي وتتحسّس حدود سجنها. يفارقني ذلك الوهن الذي سكنني طيلة ساعات النهار، وأشعر بعذوبة الشوق الممتزج بالفرح والأسى معاً.

دائماً في اللحظات الأولى للقائنا نصمت، وكأننا نستمتع بهذا الاكتفاء اللذيذ بوجودنا معاً. لاأدري مايراودها في تلك اللحظات، أما أنا فإني أفرغ كل ماقذفه العالم في

جوفي، وأقف في لحظة النقاء الأولى، أستقبل العالم من جديد، باندهاش طفل وحرارة استجابته.

أمامنا البحر امتداد من الزرقة الداكنة، وفوق الماء تنعكس الأنوار الشفافة. تعبث الريح الخفيفة بثيابنا وتفعمني بإيحاء كثيف بالبهجة وحرارة الحياة. أشعر أني قدرة على الخلق لاحدود لها. وأن الأرض تنتظر مجيئي منذ الزمن القديم لأحييها، أرسم معالمها، وأفجّر ينابيعها. ويراودني لأول مرة شعور بأن العالم جميل وخيّر، وأنني وإياها باقيان فيه بلا زمان، وأنه لاشأن لنا بشيخوخة أو موت.

نجلس على الرمل، وفوقه ننشر أحلامنا. تتلاشى الأحلام في اللحظة التي يلوح فيها شبح والدها. أهمس: إلى متى نستنفذ حياتنا من غير أن نعيشها معاً؟

تشدّ على يدي. ومع أنها تعي التشابك المحيّر لحالنا، إلا أنها لاتقول شيئاً، فجوابها دائماً، الحزن الرقيق والصمت.

الأفق لايزال مشعاً. وعند التلال الرملية تزحف ظلال بنفسجية، وتنسحب نحو الشاطئ. وفي العتمة المتكاثفة الشفافة أرى وجهها ساهماً يقاوم شعوراً بالتعاسة.

لماذا يصرّ الآخرون على رسم مصيرنا بهوس مجنون يدمّرنا. .

وأراه. . في الظلال البنفسجية أرى والدها يتقدّم، ويحملها على يديه طفلة حديثة الولادة، تخبط بيديها الصغيرتين، والقماط مشدود حول جسمها كله. يندى عنها صوت رقيق يشيع في الأجواء سكينة رائعة. يتوقف ويضع الوليدة على الرمل. ترتعش يداها الصغيرتان، فتتناثر حبات الرمل بفعل هذا العبث الطفولي. يداه اللتان تحررتا من حملها، تمسكان فأساً. تهوي الفأس وتشقّ الرمل بضربات مجنونة. وفي الجرح الرملي يضع المولودة، ثم يهيل الرمل ويسوّيه.

يرتعش الرمل ارتعاشات عصفور أردي لتوه. ومن بعيد تطلق امرأة صرخة تفجع. يسود الهدوء وتعم المكان سكينة قاتمة كما في أجواء معبد وثني.

غير بعيد، فوق الأمواج، يراوح نورس بجناحيه كدمية تحركها خيوط خفيّة. فجأة يحط فوق الماء، ثم يحلق، وفي منقاره هيكل فضي يرتعش.

تعتم عيناها. وفوق الشفتين يراوح السؤال. . ما الخطأ؟. أين الخطأ؟.

ومن بعيد أسمع صوته ينشد أشعاره. صوته ترجيعات آتية من مكان قصي.. من الصحراء. ومن الظلال البنفسجية يخرج وحيدا، عاريا، مهدور الدم. يجلس فوق الرمل. ويخط فيه. يكلم نفسه. أقترب منه، وإذ يراني، يجفل، ثم ينفر مستوحشا. أسأله.. ما الخطأ.. أين الخطأ؟! ينظر إلي. عيناه مشعتان شقيتان، ونحن شريكان في ذنب واحد.

ينادي وهو يلوح بيديه ويبتعد: أيها المجنون.. أيها المجنون.

فوق الضوء المتأرجح يتهادى قارب باسطا شراعه مسلما نفسه لقدرة الطبيعة السخية. ومن بعيد تتناهى أغنية بحار.

من الظلال يتدفق حشد، وأسمع الزغاريد. في الحشد أراها في البياض. يتقدم رجل من بين الرجال. يحملق فيها بعينين راضيتين وواثقتين ثقة من بذل ثمنا باهظا في شيء فنال حق امتلاكه الأبدي.

يباركه والدها فيبتسم. يمسك بيدها فترتعش. ويقودها إلى بيته.

أمام الباب تنحر ذبيحة. وإذ ترى الدم ترتجف وتنشج. يضحك مبتهجا ويغمس يده في الدم المسفوح. يخرجها مفرودة الأصابع ثم يخبطها على الباب المغلق. ترتسم

اليدالدامية تعويذة للحماية والرفاه والعيش المطمئن. يفتح الباب بيده المضرجة ويدخلان. ثم ينغلق الباب.

وفي البيت الذي تباركه تعويذة اليد الدامية يغتصبها.

يغيب القارب ويتوقف البحار عن الغناء.

ننهض. أمام البحرنقف وحيدين. البحر زرقة داكنة. يفتح لنا ذراعيه كأب رحيم يمنحنا بركته، فنسرع الخطى.

شمس ومطر

اليوم عطلتي. . يوم يختلف عن أيام العمل، ولكنه كغيره من أيام العطل. واجباتي اليومية أحذفها، والتفرج على الآخرين هواية محببة أمارسها وأنا أمشي في الشوارع أو أجلس في مقهى من مقاهي الأرصفة.

الشمس رقيقة وغلالات الغيوم تكشفها وتحجبها في لعبة يتتابع فيها النور والظل. المطر قريب، والطبيعة تستيقظ، وأصوات خفية لايدرك مصدرها تختلط وتتداخل في تركيب يوهم بالفوضى، وأنا، مدفوعا لمعرفة كل شيء أنصت الى هذا الخليط وفي قلبه ألمس الايقاع والنظام.

أمشي في شارع مظلل، أحس بوخزات باردة تدغدغني. . رذاذ رخي أحس به رطبا باردا قبل أن أراه. فتحات الغيوم تسكب الدفء. شمس ومطر. . تسري في الجسد ارتعاشات خفيفة تتشابك فيها أحاسيس الدفء والبرودة وتتوحد في احساس فريد رائع.

وأسمع صوتها آتيا من بعيد. يترجع الصوت في أقاصي المدينة ثم يتدانى ويحاذيني. يصبح خلفي.. أمامي.. داخلي.. ويحاصرني. تردد بصوتها العذب.. شمس ومطر. نردد معا.. نضحك. يتناءى صوتها ويترجع في أقاصي المدينة.

أسرع الخطى.. أركض.. ألحق ترجيعات الصوت..

يومها وجدتها تنتظرني قلقة وعذبة كعادتها.

أقول: الطقس ماطر.

تقول: مجرد رذاذ، وأنا أحب أن أمشي في الرذاذ.

تلاصقني. نمشي في الطرقات، ووجهتنا دائما نعرفها. نتجه الى الطريق المحاذي للنهر. يقودنا الطريق الى الأطراف الخضراء من المدينة. نتهادى تحت الرذاذ. يمر الناس بنا مسرعين وخائفين البلل، وينسحبون بعيدين عما نشعر به. الحياة الرتيبة الراكدة التي عيشت يوما بيوم، تنسحب هي الأخرى وتبتعد. وكذلك الأسيجة وصخب المدينة وجدرانها.

تتقدم منا الحدائق وتحضننا بسخاء، وأشعر بمتعة أن أكون حيا.

أراقب حبات المطر الصغيرة العالقة بشعرها. تصبح الحبات المتألقة بأشعة الشمس نقطا مضيئة.

أقول: أنت نقطة مضيئة.

تضحك.

أتابع: المطر وهو ينفذ في الأرض نقطة مضيئة أيضا.

تقول: حلمنا في العيش معا نقطة مضيئة.

أقول: حلمنا بمستقبل أجدى للبشر نقطة مضيئة أيضا.

تقول فرحة: وتلك اللوحة التي أحببناها يوما وجثونا عندها. نقطة مضيئة هي الأخرى.

أنظر اليها وسعادتي بها تكبر. عيناها تضيئان، وفي الشعر المسبل كل بوادر الرقة والحنان.

أقول راجيا: لاتتوقفي.. تكلمي.. تكلمي عن النقط المضيئة، عن أي شيء.. فصوتك يقربني من صميم الأشياء.

تحتج بنبرة فيها جزم ودلال: لا.. لاحاجة للحديث عنها، يكفي أننا نشعر بها.

أقول: أما أنا فأحب أن أتكلم، وأن أستمع اليك. الكلام مهنتي، والكلمات وسيلتي، أتعرف بها على نفسي وعليك، وعلى كل ماحولي.

تشد على يدي لتوقف سيل الكلمات. تقول: أما أنا فالصمت يوصلني أكثر.

أضحك. استسلم وأقول: كوني صموتة كما تشائين فلست بحاجة للكلمات كي أعرفك.

قطرات صغيرة تتدحرج من شعرها وتسيل فوق وجنتيها. أخشى عليها من البلل وأمد يدي لأمسحها. تنفر برأسها قائلة: تلذني دغدغتها. أتأملها وأتمنى أن يكون لنا بيت يظللنا.

أقول: يوما سيكون لنا بيت يدفئنا.

تقول وفي صوتها عبث طفولي: أريده بيتا رحالا.. عربة نجوب بها العالم. الأيام فيه متباينة وكذلك الأمكنة. ولغتنا هي الأخرى مختلفة.. كلماتها رموز لأشياء نعرفها نحن فقط.

نضحك. عيناها تضيئان والهدوء يلفنا وهي مغلفة بأخيلتي وحاجتي العميقة اليها، تشمخ أمامي كحلم رقيق..

في قلب الهدوء ينفجر صخب ولغط ويتمزق الصمت. أتلفت وأرى حشدا من بعيد. يقترب الحشد.. كتلة من رؤوس وأيد، وحيوانات، وصيحات لايعرف مصدرها.

أقول: لنعد.

تستجيب بحرارة. وبسرعة نستدير للعودة.

في تلك اللحظة يندفع الحشد نحونا اندفاعا بطيئا ثم يتسارع مجنوناوصاخبا كوحش اسطوري. تسري الرعدة في جسمها، وأصابعها مشدودة فوق يدي.

تهمس ضارعة: لنعد بسرعة.

أتأمل الوجوه المندفعة وأحاول أن أتبين ما تضمره القسمات. الوجوه جامدة الملامح كما لو كانت لموتى يخرجون من قبور غير مرئية. تتدافع الأجساد في صخب وفي تخبط أهوج. يبرز أحدهم بيننا ويتوسطنا. نثبت في مكاننا وتبقى اليدان متشابكتين. أدفعه بيدي الأخرى لابعده. يصدمني وينهض هيكله كمارد. أجهد أن أتكلم، أن أسأل لمَ يحدث كل هذا؟ ولكن الهيكل يكبر ويتمدد كجدار أصم. ترتد الكلمات وتفقد قدرتها على التأثير.

يتقدم الحشد ضاغطا. أنفاس ولهاث، صيحات، ورائحة حيوانات تتعارك.

يضغط بشراسة ويدفع بي الى الوراء. من يدي تنتزع يدها فأشعر بالخلل وكأن عالمي يفتقد لأحد الأبعاد. وتبدأ قوة خفية لا أدري ماهي. قوة لا عقل لها تزحف نحونا لتدمرنا.

أصرخ: أنت أيتها القوة الخفية الضارية لن تكوني قادرة على تدميرنا.

يزحف الحشد ويدفعني متوحشا. تضيع المنافذ وأغوص في مكاني كما لو كنت أهوي. أتذكر معبدا رأيته في مدينة قديمة. في مذبحه دم مسفوح لقربان بشري، وشموع ينعقد الدخان فوق لهبها حلقات، إثر حلقات. وتتراءى قلعة مدينتي. . جسرها وبابها الرائعان. وأجدني أمام قاعتها الموحشة. . القاعة القائمة تحت الأرض والمنحوتة في الصخر. تسري رعشة في جسمي وأنا أستعيد اسمها وأسمع أنين السجناء يدفنون أحياء فيها. وأحس بالأيدي تدفعني اليها وتغلق علي بجدار أصم.

يغشى المكان ظلام كثيف، ويصمت كل شيء.

الصمت يغلف المكان. تنسحب الحدائق وتتقدم جدران المدينة وصخبها. العالم سياج مغلق. يرحل المطر. الشمس باقية، والشجر يرشف قطرات ماتزال عالقة بالأوراق.

أمشي في شارع مظلل. أبحث عنها. أسمعها: حلمنا في العيش معا نقطة مضيئة.

أردد: حلمنا بمستقل أجدى للبشر نقطة مضيئة أيضا.

يعود الرذاذ رخيا وفتحات الغيوم تسكب الدفء. أسمع صوتها. . شمس ومطر. . ترن أصداؤه في أقاصي المدينة وينطلق في صمت العالم وجريانه.

اللحن المنسيّ

-١-

بحثت طويلا عن انسان يقبل مقايضتي. فأنا أعيش في مدينة كبيرة، المطر في ضجيجها يهطل صامتا، وهو ما يكاد يصفق الأرض حتى يصير وحلاً يلوث كل شيء. لذا بحثت عمن يقايضني بيتي ببيت آخر. لا يهمني أن يكون صغيرا أو خيمة أو كوخا. كل ما أبغيه، أن يكون في مكان يصخب فيه المطر ويمنح الأشياء نقاء وطراوة.

مقايضتي أثارت الدهشة ثم الأقاويل. بعض من عرف بها قال إنني أهوى الإدهاش. البعض الآخر قال إنني أمشي على الأرض ولكني أضع رأسي في الغيوم. وحين أخبرتهم أن مشكلتي هي المطر قالوا إنني مجنون.

-٢-

يوما جاءني أحدهم وقال لي: أنا أقايضك ببيتي. إنه بيت صغير في أرض بدائية لايُسلك اليها بسهولة، ولكن نوافذه واسعة وسعتها مدى يمتد حتى الأفق. قلت وأنا لا أكاد أصدق ما سمعت: أنا موافق.

نظر إلي مستغربا: كيف توافق وأنت لم تره؟

قلت: أثق بوصفك وأجده رائعا.

قال: ولكنني أريد أن أرى بيتك.

صحبته الى بيتي. عاين أرضه وسقفه وجدرانه وعدّ غرفه.

سألني: هل أنت جاد في موقفك؟.

قلت: كل الجد. بإمكاننا أن نتبادل الآن.

قدمت له بيتي. نظر إلي وشعرت أنه بات موقنا من أنني إنسان مجنون.

حملت ثيابي وكتبي وألواني، وحاجيات اعتبرتها ضرورية لحياتي، ورحلت الى بيتي الجديد. غرفة واحدة

والمدى الصامت حتى الأفق. أنا وبيتي. أنا الهارب من الضجيج الى النقاء والصمت. . وهو المرمي المنتظر لساكن يأويه ويمنحه دفء العيش.

وقفت أمام الباب. عيناي المخدوشتان بالجدران والغبار راحتا تسرحان وتحطان على الأشياء. . ، أرض تمرح فوقها الطراوة والألوان، وكائنات صغيرة أحس بها ولا أراها. وبقدرة استثنائية خارقة صارت هذه الأشياء ملكي. أغمضت عيني فتراءت لي أشياء أخرى أحبّها. أطلقت عليها أسماءها وامتلكتها هي الأخرى. رحت أفتح عيني وأغلقهما وأنا مأخوذ بهذه اللعبة التي تمنحني وجود الأشياء. .

شعرت بالفرح، وبأن مئات الحاجات، والمجاملات بلا قناعة، والابتسامات المرسومة بافتعال فوق الشفاه، والضجيج، والدخان. . قد حطت عن كاهلي وبعدت. وأن بعدها منحني الجرأة والقدرة على أن أخلط ألواني وأمزجها لأبدع منها تشكيلات لاحد لتنوعها.

-٤-

فجأة لمحته واقفا في الظل. حين وقعت عيناي عليه خرج من مكانه وتقدم مني بخطوات ذئب عجوز، وكأن بيننا

اتفاقا مسبقا على أن نلتقي في هذا المكان. تجاهلته وأبعدت خاطرة سؤاله عمن يكون. أحسست بنظراته تحاصرني، وشعرت اني هدف لملاحقة لا أدري سببها، يقوم بها رجل لا أعرفه.

في البداية راودني الشك بوجوده. قلت لنفسي: هذا شيء لا يمكن أن يحدث حقيقة، فما من بيت في الجوار، وما من أحد يعلم بأمر مجيئي. ولكن حين ابتسم تلك الابتسامة اللعينة الواثقة وناداني باسمي، أدركت أن وجوده أمر واقعي لاريب فيه.

قلت: ماذا تريد؟ كيف تسنّى لك أن تعرف اسمي ومكاني؟ أجاب بهدوء أثارني: أنا أعرفك. وقد أتيت لمساعدتك.

صفق بيديه تصفيقا خفيفا. وللحال اندفعت عربة، قفز منها بعض الأشخاص وراحوا يفرغون ما فيها.

الدهشة هي ما شعرت به في البداية، ثم اقتحمني الخوف والغضب. شعرت أن علي أن أحمي نفسي، وان وسيلتي أمام كل هذا القسر والغباء، أن أهرب الى بيتي. اندفعت الى البيت. أوصدت الباب وارتميت بثقلي عليه. ساد الصمت.. لانأمة ولا صوت. استعدت أنفاسي. وراودني

الشك ثانية بحقيقة ما حدث. قلت لنفسي: لعل كل ما سمعت ورأيت قد انبثق من خيالي. وعجبت كيف يمكن للواقع أن يغتذي بكل هذا القدر من الخيال.

نزعت عني مخاوفي وغضبي، وشعرت بالحاجة الى فعل أحبه. أخذت ألواني ورحت أخط على الجدار العاري. الضربات الأولى من الخط واللون صارت تكوينا يلتمس شكله، وراح لحن منسي ينهض في الغرفة ويصلني بذاتي، ويجسم العالم حولي.

-٥-

سمعت طرقا خفيفا. فتحت الباب ووجدته أمامي. وجه مهذب الى حد جعلني أمقته. سألني بلهجة من يسعى الى ارضائي: هل تسمح لي بالدخول؟ لم ينتظر ردي. اندفع بجسمه، وبلمحة كان يقف وسط الغرفة، وتلك الابتسامة اللعينة الواثقة ترتسم على وجهه.

قال: علمت بانتقالك الى البيت فجئت أضع كل وسائلي في خدمتك.

قلت: أنا أملك كل ماأحتاج اليه.

أجـال بصـره في الغـرفة، لـم يقـتنع بكـلامي وبدا غيـر مبال.

تقـدم من النافذة وأومـأ برأسه ايماءة خفيـفة. وللحال انفجر الضجيج.

-٦-

فـار المكان واضطرب وكـأن ثمـة مـاردا انطلـق من قـمم حبس فيـه مـئات السنين... أشـخاص، واصـوات ارتطام، نداءات، ومئات الأشياء راحت تقـذف من الخارج، تتلقفـها الأيدي وترمـيـهـا داخل بيـتي. شـدهت، ثم بدأت أصـرخ وأركض أحـاول أن أوقف كل شيء. ولكن صـوتي ارتـد الى داخلي، فـما من أحـد سـمعني، ومـا من أحـد توقف. بدأت الأشـيـاء المعـبأة تفـرغ، تنفـصل وتتـوضح معـالمها.. أسـرة، ملاءات، خزائن، مقاعـد، وصناديق مـلأت الزوايا. أجـهـزة الكتـرونيـة أشـرطة صـوتيـة، أغـذية معلبة. إعـلانات بلغـات مختلفة، وملصقات غطت الجدران.

شعرت بالوهن، وجلست على الأرض. كانت الأقدام

تروح وتجيء، والأشياء تتراكم، وتتعاظم كتلها كأمواج عاتية، تقذف بها وتدفعها قوة طاغية.

سمعت صوته: جربوا الأجهزة، جربوا كل شيء.

أديرت الأزرار. أزت الأصوات واختلطت.. أصوات تنفجر، انبهارات أضواء. إذاعات تعمل... أخبار، إعلانات. مارشات عسكرية، وأغنية عاطفية.

سمعته يقول: كل شيء حسن.

نظرت حولي: الأشياء تحيط بي، تعلوني، تغطيني وتسلبني الرؤية والمدى، وأنا أجلس على الأرض هامدا ومسكونا بالوهن.

-٧-

فجأة تعثر وارتطم بي. توقف ونظر إلي مستغربا. أمسكني من كتفي. رفعني وتأمل وجهي. بدوت له شيئا غريبا.

سألني: من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

لم أجب.

تركني أهوي. غاب لحظات ثم عاد وبيده علبة فارغة.

رفعني عن الأرض. وضعني فيها ثم حملها ورماها خارجا.
ارتطمت بالأرض. اختلج جسدي ثم سكنت.

-٨-

رحل الجميع.. ساد الصمت. أتى الليل. آلمني جسمي. استيقظت الأرض. عبقت رائحة التراب، وازدحمت السماء الصافية بنجوم صغيرة. تذكرت الفتاة الرقيقة التي هي حبيبتي منذ الزمن القديم. ابتسمتُ بعذوبة.. تألقت ألواني.. الضربات الأولى من الخط واللون ما زالت على الجدار تكوينا يلتمسه شكله.. وفي الخيال رحت أخلط الألوان وأمزجها لأبدع تشكيلات لاحد لتنوعها. ومن عمق الصمت نهض لحن منسي.. راح يتدافع ويصلني بذاتي، وبجسم العالم حولي.

- الغفوة -

أستيقظ على صوت رنين الساعة كعادتي كل صباح.
أرتدي ثيابي على عجل. تسعفني أمي بالقهوة وأنا أوشك أن أغادر. وفيما أصفق الباب، أتخيلها رافعة يديها تدعو لي كعادتها.

في الطريق بقية من نعاس لاتزال تتشبث بأجفاني، ولكن برودة الصباح التشريني توقظ وعيي وتنعشني، فأحث الخطى نحو موقف الباص.

فتى الباص يحاصر العابرين بندائه.. جامعة.. جامعة. أحشر نفسي بين الجالسين فوق أحد المقاعد، وأستسلم لشرود كسول يحملني بعيداً عن سير الباص، وتوقفه المتكرر، وهو يفرغ بشراً، ويبتلع آخرين، يواكبهم نداء الفتى بإيقاعه السريع المتوتر.

عند مدخل الجامعة نهرول أفواجاً.. نتوزع في الدهاليز، ثم تبتلعنا المدرجات والقاعات.

أدخل قاعتي، وأبحث عن مقعد خال. الأستاذبدأ لتوه المحاضرة. أفتح أوراقي على عجل، وأكتب. همّي أن ألاحق الكلمات، وألا تفوتني واحدة.

«أقواله جواز مرور في متاهة الامتحان». هذا ماقاله لنا طلاّب سبقونا في السنوات والخبرة. «أنا لاأريد أن أضيع في المتاهة». أستنفر حواسي كلها. يصير الكلام أصواتاً تتلقفها أذناي وترسمها يدي أشكالاً جامدة على الورق.

تمضي فترة، وصوت الأستاذ كهدير آلة لاتتوقف. وللحظة أشعر أن صوته يلاحق وعيي، يحاصره، ويغلق عليه. وتأنس يدي لخدرخفيف يتشبث بها وينسلّ إلى بقية أعضائي فأتثاءب. أقول لنفسي: لأخرج إلى حديقة الجامعة أستنشق هواء نقياً.

في اللحظة التي أنهض فيها، يحوّل الأستاذ عينيه نحوي ثم يتوقف، فتصمت القاعة. يلفني الصمت كصديق يرفق بي، فأستسلم له.

يخفض الجالس قربي رأسه وهو يدنيه مني، ويهمس «اجلس بسرعة.. الأستاذ لايقبل المقاطعة.. لاتغامر بإبداء رأيك..»

أحتار.. رأيي! رأيي بأي شيء، فأنا مشتت الوعي،

والكلام مجرد أصوات تأخذ أشكالاً على الورق. . فقط أريد. .

يشدّني من سترتي، فأجلس بهدوء. تنداح دائرة الصمت ثم تتلاشى في محيط القاعة وتمتصها الجدران. تعاود الأشياء والحركات والأصوات سيرورتها السابقة. وكأن قيامي وقعودي حدثا في غير هذا المكان، وخارج إطار هذا الزمان.

يعاودني الخدر. يطفئ حواسي واحدة بعد أخرى، فأغمض عيني.

* * *

خيل إلي أني غفوت، وأن غفوتي امتدت طويلا، ربما سنين عديدة، ثم أصحو من غفوتي، فأجد نفسي على المقعد لأزال، وحولي رؤوس منكبة، وأقلام تلهث راكضة فوق المساحات البيض، وأسمع كلاما معادا ألفته أذناي قبل غفوتي، وكأنه دوران لانهائي في دائرة مفرغة.

تفترش الدائرة وعيي، تحاصره. اسأل نفسي أين البداية في الدائرة، وأين النهاية؟!

ماجدوى السؤال؟! منذ زمان والأسئلة تلاحقني، تدور

في رأسي، تكبر، تصير موجعة وتبقى معلقة. ماجدوى السؤال؟!

ألملم أغراضي، وبلمحة أصير خارج القاعة.

* * *

في الساحة أمام الجامعة، فتى الباص ينادي، يستحث العائدين إلى قلب المدينة. أجلس في الباص وأراقب الطريق من النافذة.

أنزل في مركز المدينة، وأمشي إلى الساحة الكبيرة المنسقة. في طرف الساحة حوض للأزهار ونوفرة ماء. أجلس على حافة الحوض الحجرية، وأستمتع بزغردة الماء المتواثب. في فضاء الساحة وحولها زينات ورقية ومصابيح ملونة كثيرة. وفوق الأعمدة والأبنية تمتد لوحات تحمل شعارات، وصورا لأشخاص ذوي نفوذ.

أنصرف إلى نفسي عن كل شيء. أمعن التأمل في غفوتي، كيف حدثت لعلي أفسرها، أو لعلي أجد بداية للدائرة ونهاية. أحتار.. أتخلى عن المحاولة، وأرفع رأسي لأتفرج على السماء، ولكن الشعارات والصور تحدق بي..

عشرات المرات رأيتها من قبل . . هي هي . . لاتتغير . أحيد عنها بصري نحو السماء ، فتزحف نحوي ، تصير فوقي ، حولي وتحاصرني . أرفع يدي لأحتمي . تعود الدائرة وتجتاح وعيي : أين البداية في الدائرة ، وأين النهاية؟

ماجدوى السؤال؟ ! يغشاني الحزن . وأنهض .

* * *

في الحديقة الكبيرة أجلس فوق مقعد . الشمس تحتضن كل شيء . أغمض عيني . . تنداح فيهما دوائر معتمة . . من كتلة العتم تنفجر ألوان وتتداخل ، وشيئا فشيئا يرشف جسمي دفء الشمس ، ويوائم قلبي نبضاته بخفقات خفية عميقة تتدافع من أعماق الأرض .

أسكن إليها ، وأغفو .

دردشـة مسائيـة

عرفتها مراهقة أيام الدراسة الثانوية، ثم التقيتها في الجامعة في اختصاص واحد. تزوجت وأقامت مع زوجها في إحدى المدن الكبيرة، وتزوجت وسكنت في المدينة نفسها. تواصلت لقاءاتنا. وظللت صداقتنا أسرتينا، فيما كان الزمان يفعل فعله الماكر في جسدينا. . . صار لنا شعر أشيب، وتجاعيد تمسح وجهينا عابثة بملامحنا، مقاربة حدّ تضليل من يرانا، وأصابنا مايصيب كل إنسان مُنح حلو الحياة ومرّها. . . كان مصيرانا يحاذي واحدهما الآخر كتوأمين التصقا منذ الولادة، وانتهيا إلى تلك الوحدة في آخر العمر.

اعتدت أن أزورها، فنجلس في البهو الفسيح تنفتح عليه غرفتا الطعام والضيوف. من أول البهو تأتي نحوي حاملة صينية القهوة، فتبدو في ذاك الفراغ الكبير كنقطة في جرم بالغ الاتساع.

نرشف القهوة، وفي خيالي أستبق حديثاً قادماً

بيننا، وكأنه نص مسرحية يتهيأ لها ممثلان على خشبة لم ترفع ستارتها بعد.

اسألها: ماجديد أخبارك؟

«.. أرسل رسالة ونقوداً.. أنا لاأحتاج مالاً، أريد فقط أن أراه.. أخبرني أن مشاغله كثيرة، وسيأتي في أول فرصة.. سنوات أنتظر هذه الفرصة، وأنا..»

قاطعتها لأبعد حزناً يفيض دائماً من عينيها.. «عليك أن تقدري ظروفه.. لمَ لاتسافرين إليه؟» تابعت وكأنها لم تسمعني.. «يوم توفي والده بكى على الهاتف، ولكنه لم يأت. قال إنه يرتبط بعقد جديد، ومجيئه يضيّع عليه فرصة نادرة. أخشى إذا أنا...»

قاطعتها وأنا أدرك هاجسها عن موت يفاجئها وحيدة، فلا ينبئ عنه غير تعفّنٍ للجسد يفضح موتها.

قلت ألومها: «أنا وحيدة مثلك.. ولداي يَعدان بعودة أعرف أنها لن تتحقق. ولكني لاأَدع وسواساً كهذا يخرّب استمتاعي بحياتي، وبالآتي من عمري».

قلبنا صفحة غربة الأبناء. تبادلنا أحاديث عن ذكريات ماضية، وخيبات حاضرة، وآمال تراوح بين ظهور وخمود مهدّد بالانطفاء.

حين عششت العتمة في الزوايا، شارفت الأدوار على نهايتها. نهضت، فمشت خلفي صامتة تشيعني حتى الباب الخارجي.

قبل أن أغادر، وضعت في يدي مفتاحاً: «أرجوك احتفظي بمفتاح بيتي.. أخشى إن أنا..»

حاولت أن أعترض، ولكنها أطبقت كفّي عليه، ودفعتني.

سمعت صوت بابها يغلق، وكأنه حجر يدحرج فوق حفرة تغيّبها إلى الأبد.

مشيت وئيداً. الطريق شبه مقفرة. غلالة شفيفة من الرطوبة تلفّ العالم مانحة حميمية تغلغلت في منافذ جسدي. شعرت بالعالم دافئاً يحتويني. وشيئاً فشيئاً، راح حزني يتراخى منسكبا فوق الطريق.

أشرعت نوافذي... وفي داخلي فاض لحن قديم رحت أردّده بعبث طفولي.. وأسرعت الخطى.

يوم خريفي

أستيقظ صباحاً. أبقى في فراشي. أنسى النهوض الباكر حين كان المنبه يُطلق إنذاره وكأنه انفتاح الهاوية. البيت ساكن. أبتسم مستمتعة بوحدة أكتشف مزاياها صباح كل يوم بفرح ودهشة طفل. أصنع قهوتي. كل يوم أرشفها بشكل مغاير يروق لي، وأبتكر مناخات تعزز استمتاعي بها.. في الفراش، أو قرب المدفأة الموقدة، ربما مع لحن ينساب هادئاً، أو في سياق فضاءات تشيعها كلمات أقرؤها.. وفي كل مرة تكون للقهوة نكهة مميَّزة ومغايرة.

تمضي ساعات، تتقدم الشمس بسطوة ضيائها، ثم تتوسط السماء. وحين تميل عن سمتها، تدخل أشعتها من نافذة غربية فارشة فوقي بقعة من الدفء والضياء. عندئذ أتململ، وتعتريني رجفة خفيفة من ثقلِ بعد ظُهرٍ تتلكأ ساعاته مخلّفة في الغرفة حضوراً أحسه مرة كتيماً كالرصاص، ومرة صقيعياً كليل الصحراء.

ترحل الشمس . . وقبل المساء، أتذكر أني صامتة طوال النهار، وعندئذ يجتاحني جوع كثيف للكلام. أفتح التلفاز . . تتدفّق الكلمات، ومعها اندفاعات عشوائية لأضواء مبهرة. أسكت التلفاز. أجول في أطراف البيت. أتأمل وجهي في المرآة. تطالعني صورة أتعرف فيها على وجه أمي التي رحلت منذ سنين بعيدة. يدهشني الشبه بيني وبينها، وهي في خريف عمرها.

وجه أمي يوقظ في داخلي حنيناً لايزال دافئاً تحت ركام السنين. أهمس: «مساء الخير ياأمي». لاتجيب. يتشظى وجهها في المرآة ويصير وجوهاً لنساء يشبهنها، وفوق رؤوسهن الشعر الأشيب. ترمش بعينها ثم تتوارى ماسحة كل الوجوه من فوق المرآة.

يغوص قلبي في فراغ يمتد حتى أطراف العالم، ويفصلني عن ولديّ. . ثلاثة نحن في ثلاث قارات ودون كل منها المحيطات والمساحات الشاسعة.

ترحل الشمس. وفي الغرفة يهبط المساء شفيفاً. أسلم نفسي لليل قد يحمل الأرق، ولكن معه تعود الأحلام أيضاً.

في الغرفة المغشّاة بالسكينة ألمحها . . تتقافز شقية كعهدي بها دائماً، وخلفها أخوها محتمياً بها كعادته، توارب ضحكة تنبع عنها غمّازتان تنغمسان في خدّيها.

تهمس: أمي.. أما من حكاية جديدة لناعسيّن في المساء؟!

أضحك.. تفيض الحياة في داخلي والخيال. شيئاً فشيئاً تبرعم الحكاية الجديدة... «كان ياماكان» ومع الكلمات المحكية بصمت، يتدفق الفرح ناثراً فوق جدران غرفتي ألواناً زاهية، كحياة بدأت لتوّها.

شرق ... غرب

التقينا صدفة في أحد المعارض. كنت أمام لوحة أتأملها. أتاني صوت هامس من خلفي: هل أعجبتك اللوحة؟

التفت.. تبادلنا النظر.. كرّت سنوات إلى الوراء.. عشر.. عشرون.. ثلاثون.. في الجامعة كنا صديقين، ثم انقطعت الصلات والأخبار بعد تخرجنا. صارت لي أسرة، وأبعدتني شؤون الحياة والعمل عن تتبع أخبار الأصدقاء القدامى، خاصة أولئك الذين لم يفلتوا من فخّ العيش اليومي، ونمط حياة تتوالى يوماً بعد يوم بعيداً عن أي اقتحام أو إبداع.

- ألم تعرفيني؟!

أعادني السؤال إليه. ارتسمت على وجهينا ابتسامتان. دعاني لشراب. جلسنا في مقهى رصيفي، وفيما كنا نرشف شرابنا، راحت الذاكرة تتمطى فاتحة دروباً صغيرة. حكيت عن أيام الجامعة.. المحاضرات، الإضرابات، وأحلام ذاك المستقبل العربي الذي كان يطلق في كياناتنا ألف جناح.

أخبرني أنه سافر بعد تخرجه إلى قارة بعيدة في أقصى الغرب، وأنه هناك غيّب أحلام الشرق، وطوى ذلك الهاجس الذي اسـمـه المسـتـقـبل العـربي، وأنه أصـاب نجـاحـاً في العمل، وجمع ثروة تجعل الحياة مشتهاة وبلا هموم.

سـألت ومرارة تنثـال في حلقي: مـا الذي أعـادك إلى الوطن؟.

قال: أزور بلدي ضمنّ جولة أقوم بها حول العالم.

صـمـتنا. قـال وهو يتـأملني: كل شيء فـيك كـمـا عهدته... أمر واحد ضاع.. فرح عينيك!

لم أعلق على كلامه.

تابع: سمعت أنك أصبت بفقد عزيز.. ولكن حدث هذا منذ زمن بعيد.. الزمن كما أعرف يخمد الأحزان.. عيب شرقنا أنه يجترّ ماضيه بكل عذاباته وأمجاده.. يتقوقع فيه، ويُغلق على نفسه النهاية. أعتقد أنه آن لهذا الحزن أن ينتهي...

أغمضت عيني، ولم أعد أسمعه. أمامي تدافعت صور أحـــزان راحت تضجّ في رأسي.. صـــورة أرض تنتهك، وأطفال تتناثر أعضاؤهم، ووجوه أمهات مشروخة بالفجيعة، وعيون جائعة تفضح نذالة العالم، وحكام يتقنون

النفاق ورفع الأسوار . . صور . . صور . . صور . . فتحت عينيّ لأوقف تدفقها . .

على الأرض، عند قدمي . . بيني وبينه، رأيت ذاك الصدع . بدا شقاً دقيقاً كالوهم، ثم استبان وراح يتسع مباعدا مابين طرفيه . صرنا اثنين في طرفين . . ورأيته فوق كرسيه يتناءى بتسارع جنوني . وراح وهو يبتعد، يتضاءل ويتضاءل حتى أضحى نقطة صغيرة لم تلبث أن تلاشت .

لململت أغراضي، ونهضت .

حدث في أوائل الربيع

أغادر عملي مبكرة. الوقت ضحى واليوم أوائل الربيع. اعتدت في الأيام الماطرة أن أعود الى البيت. ولكن حين يكون الطقس صاحيا، أجدني مدفوعة برغبة قديمة، الى التسكع في الحدائق.

أمشي في طريق محفوفة بالأشجار، وأتوجه كعادتي الى الحديقة. البرودة واخزة لذيذة تتغلغل في الجسد فيتوثب، وتصدم العينين فيندفع منهما دمع رقيق يتكاثف ويتأرجح. أضحك وأشعر بالبهجة وأنا أنظر الى العالم بعينين مبتلتين وأرى الأشياء تكبر وتتداخل في فوضى عجيبة محببة.

أدخل الحديقة وأجلس على مقعد خشبي. دفء الضحى أرشفه وأستيقظ. تحت قدمي، العشب يطل برؤوس مشدوهة بحلاوة الحياة. أمد يدي وأقطع بعض الأعشاب. أرفعها الى وجهي وأستنشق. تنفذ الي رائحة موجعة مفعمة بالحنان. أتذكر أمي، وأحن اليه. يمتزج الحنين بصوته.

يومـهـا قـال وهو يلتـصق بي على المقـعـد: لا تقطعي الأعشاب - انظري اليها فجمالها في طراوتها.

قلت وأنا أضحك: تُمتعني الرائحة.. مزيج من الرقة والحنان يذكرني بأمي.

أدنيت العشب من وجهه ليستنشقه. استنشق وقال بنبرة مشاكسة: انها رائحة وحشية فيها كل الجموح والتفجر لحياة ولدت لتوها.

قلت: نحن متفقان، فالأم والولادة لا ينفصلان.

صمتنا. العشب يرتعش والأرض تتفجر حياة.

قلت: الخصب وتجدد الحياة شيء رائع: أمامه يصير الموت وهما. أتدري ان الاله الميت يبعث الآن حيا، يصعد من عالمه السفلي ويخصب الأرض عشبا وزرعا!! أترانا يوما نعود الى هذه الأرض عشبا؟!

قال ونبرة من الحزن تلون صوته: ما أرحب خيالك!

سألته: هل أحزنك كلامي؟

«لا.. كل مـا في الأمـر أنك توقظين حـسـي الدفين بجمال الطبيعة، فأسلم نفسي لها. تحتويني، تغسلني، تنقيني كما يفعل المطر الغزير بالشجر. وحين أصبح نقيا، تجتاحني موجة من الحزن الرقيق».

صمتنا. ورحنا نتأمل العشب.

قلت: انظر كيف يتألق ويرتعش! ماالذي يرعشه بهذا الشكل؟ أتراها روح خفية ساحرة تسكنه وتعطيه كل هذا الألق؟

قال: ومن غيره الخفي الساحر يهب الألق.. أنسيت ان إلهك الناهض من عالمه السفلي إله عاشق؟

قلت: أهو الحب؟

قال: والحب فرح

قلت: والفرح رعشة وألق.

ضحك مبتهجا: لا أدري كيف تقولين ما أريد قوله.

أمسك بيدي ونهضنا.. العالم رقة وحنان.. ونحن كائنان بلا زمن.

في السماء تتلاقى الغيوم وتتباعد. تفسح عن فرجة ينسكب منها ضوء غزير. يتوهج العشب. أنظر اليه وأقول لنفسي: هذا الألق كله أيكون بالحب.. ذلك الخفي الساحر واهب الفرح!

أتناول عن الأرض غصنا صغيرا. وكما تفعل الجنية حين تستحضر بسحرها ما تريد، أمرر الغصن في التراب وأرسم الكلمة.

من بعيد ألمح عامل الحديقة يعنى بالغراس. يراني فيترك

ما بيده ويقترب. بيننا صداقة صامتة قديمة تدفعنا أحيانا لأن نتبادل التحية والحديث. في البداية حين كنت آتي وأجلس وحيدة، كان يحوم حولي ويراقبني بعينين مرتابتين، وحين تكرر مجيئي وحدي قال عني: امرأة تهوى الطبيعة.

على مقعد قريب يجلس ويتناول لفافة. يشعلها ويرشفها بمتعة متذوق عتيق.

يقول محييا: البركة بقدوم الربيع.

تسرني تحيته. أتأمل الوجه المغضن وأقول: أنت من أعد لقدومه في هذه الحديقة.

تراوح ابتسامة فوق وجهه التعب وتستقر في العينين. يقول: أشكرك، أنت تجعلين مني شيخا نافعا.

يصمت. ينفث الدخان وعيناه تتأملان الأعشاب المقطوعة في يدي. يقول: يحيرني والله أمرك، فأنا لم أر خلال وجودي الممتد لسنوات في هذه الحديقة امرأة مثلك تقطع الأعشاب وتستنشقها، لم أجد أحدا مثلك يفعل ذلك من قبل. أية رائحة مثيرة يمكن أن تبعثها الأعشاب المقطوعة!

لا أجيب. أتأمل وجهه غارقا في ضوء الشمس. أرى تراكم الزمن يحفر غضونه فيه لمسة بعد لمسة. أحاول التمييز بين آثار الضحك وآثار الدموع. يتعذر عليّ التمييز، فالتداخل

بينهما يجعل الفروق دقيقة هشة. الوجه مستسلم مستكين ولكنه يعكس حلما ما يزال يقيم في الأعماق. أحاول أن ألمس الحلم أن أعرف أية حياة رحبة راودت هذه الأعماق. ولكن كيف أنفذ الى حلم يختبىء في القلب؟

رغبتي في اقتحام الأعماق تلح علي إلحاحا لا أقوى على مقاومته. كيف أحرض ذاكرته وأستثير ما فيها؟ كيف ألهب الذكريات وأحرر المشاعر الدفينة المشحونة وأجعلها تتداعى؟

أقول: حديقتك جميلة، وحبك لها هو الذي يهبها جمالها.

يقول: انها الشيء الحقيقي الوحيد لرجل مثلي. في البداية كنت أعتني بها لأكسب عيشي، أما الآن فلا أقدر أن أعيش بدونها. لا بد كي يستمر الانسان من شيء يحبه ولا يقدر أن يستغني عنه.

في الكلمات مرارة، وفوقنا يتمدد ظل كئيب، وأنا أريد أن ألمس الوجع الجاثم في الداخل. أسأله: ألم تعشق يوما امرأة؟

يصدمه السؤال فينهض مرتبكا كطفل يفاجأ وهو يهمّ بفعل يخشى ان يكشفه أحد.

أدرك أني أتجاوز الحدود. أقول: أعتذر، لم أكن أقصد إحراجك.

يقول: لابأس. . ولكنني لاأريد الحديث في الأمور المؤلمة. أنا لم أعرف في هذا غير الألم. أقول: ولكن ألم الحب من نوع خاص. . انه ألم فَرِح.

يردد: أنا لم أعرف غير الألم.

نصمت. العشب يتألق والحب كلمة مكتوبة في التراب. أتناول الغصن وأسحبه فوق حروف الكلمة. تنشد إليها عيناه، ويفتر ثغره عن ابتسامة حزينة.

يسأل: هل تؤمنين بوجوده؟

لا أجيب: يقول وفي صوته سخرية مريرة: أما أنا فأجده وهما وقبض ريح دائما يهرب قبل أن نستطيع الإمساك به. ولا يبقى منه سوى الألم. الألم وحده هو الذي يبقى وينمو، منه تقتات الذاكرة، وفيها يعشش ويتشكل بألف شكل.

أقول: ومع ذلك فهو موجود.

يقول: موجود كتلك الكلمة التي كتبتها في التراب. .

مجرد كلمة . . ماذا يمكن لكلمة أن تعطي . . أقول اسمع هذه الحكاية : في الزمن القديم حين كان المطر يحتبس في السماء، وحين كان الجفاف يشقق الأرض، والعشب يختنق قبل أن يولد في جوف الأرض. كان الناس العطاش يخرجون الى العراء، يواجهون السماء، ينشدون ويبتهلون التماسا للمطر. كانت أناشيدهم وكلماتهم تضج في الأجواء، تصخب، تدوّي، تستثير، تصل الوشائج، وتوقد الحب الراكد في الكون، وكان المطر يهطل.

ينصت إلي ويتأملني. يطرق ثم يجلس على الأرض غارقا بالشجن، ويظلل الحديقة صمت حزين.

الوجه ساكن مستسلم، وفي الداخل حلم مايزال يعيش في الأعماق.

في السماء تتدافع الغيوم، تتباعد، وتفسح عن فرجة واسعة. ينسكب الضوء غزيرا. وتحت قدمي يتألق العشب ويرتعش.

أنشودة للموت... أنشودة للحياة

-١-

راقبته وهو يضع الشريط. تدفق اللحن فتهاوت الجدران وشفّ كل شيء. صرنا في قلب العالم. في الحميم منه.

نظر إليّ وهو يبتسم: اللحن الذي تحبين.

تدفق اللحن باختلاجات فرحة مسحت كل مافعلته الحياة اليومية بنا من خدوش وخذلان. وبدت الغرفة كثيفة بالغبطة. وأفعمتني قوة لامتلاك الحياة النابضة بجسدي، وشعرت بالحياة مخلوقاً رائعاً فريداً ألاحقه في غابة لم يرتدها أحد بعد.

سمعت صوته: هو ذا النور يتناثر من علُ، ويغسل كل شيء.

قلت: بل نحن نصعد إليه وبه نمتلئ.

صمتنا. تسارع اللحن. تزاحم العالم حولي وصار أكثر

طراوة. تواصلت الحيوات وتوهجت مأخوذة بحمى التواصل وألقه. صرت شهوة عارمة للحياة، وشعرت أني كبرت وكبرت، وأن جسدي غطى العالم وامتزجا. صرت أرضاً وسماءً مشرعة الأبواب والأعماق، ومددت يدي لأقبض على الأسرار.

سمعته يسألني:

- أتحبين الموسيقا؟

-أحبك.

- سألتك عن الموسيقا

- وأنا أجبتك.

- قال وفي صوته استسلام عذب:

- دائماً أنت ماأنت.. مأخوذة بالغموض، وفي رأسك تتداخل الأشياء وتختلط.

-٢-

كنا مستقلين، وكان صامتاً، وحيث التصق وجهي بصدره شعرت بأن ثمة هماً يرعشه.

سألته: هل أنت مهموم؟

لم يجب. انقبض جسمه، وعرفت أنه يلاحق هماً ليسكته. عاد الهمّ وأقام في الصدر.

وحيث ألصقت وجهي كانت رعشة تتشبث وتخز.

سألني:

- هل حدث يوماً، أن قرضك شيء ما؟

- لا، ولم هذا السؤال؟

- أشعر بأن شيئاً ما يقرض في أعماقي.

صمتّ. وحيث التصق وجهي بصدره سمعت صوتاً مخرشاً. كان شيء ما يقرض في أعماقه. وشعرت بالخوف.

قال: - إنه ذاك الشعور القديم.

عرفت قصده، وبقيت صامتة.

- شعوري بأن لحظات الحياة تحمل في طياتها بذور موتها.

قلت باندفاع محموم: وماذا عن اللحظات المثقلة بالحب والجمال؟ ألم تقل إن الحب والفن هما اللذان يمدان الحياة بديمومة رائعة، وإنهما يوحّدان الشتات ويمنحان الحياة ما تحتاجه من معنى؟ ألم يكن هذا كشفاً لهثت وراءه أياماً طويلة؟

- إنه كشفي حقاً ولكنه تسوية فرحة قد تمنع عن النفس

تهشمها، ولكنها لاتجنبها المصير. أنت تعرفين أنه لابد أن يأتي يوم وننتهي فيه.

قلت كمن يصفق باباً في وجه ريح عاتية

- «من يحب يبقى أبداً ولا ينتهي».

قال وفي صوته استسلام عذب:

«دائماً أنت ما أنت.. تنكرين مالا ترغبين».

-٣-

في الليل كنا نائمين، ومن غير أن أفتح عيني رأيته يتقدم نحونا، ليّناً، سديمياً، وغيرَ ذي ملامح.

قلت لنفسي: هي رؤيا وأنا أحب الرؤى، بها تنكشف الأسرار، وتنضح الأعماق بألوان وأبعاد لها نكهة الكنوز المخبّأة.

اقترب، وبرفق باعد ما بيننا.

قلت بهمس: رؤانا واحدة فلماذا تبعده عني؟

لم يلتفت إليّ، ولم يجب. مدّ يديه وحمله بهدوء، كما الأم تحمل طفلها الذي أغفى لتوّه.

وفي النور الخافت الذي تشعّه سماء الليل الصافي، رأيتهما يبتعدان.

غامت الرؤيا، وفي داخلي مات صوتي.

مددت يدي وتحسست ماحولي. كان ما حولي خاوياً، وكنت وحيدة.

وصرخت في عمق الليل.

همت في الطرقات. دوّم الحزن في داخلي، ثم أطلقني من الأزمنة السحيقة، امرأة بدائية تقول حزنها بكاء. لم يجدِ بكائي، فالشمس ظلت تشرق كل صباح، والأشجار المورقة لم تسقط أوراقها الخضر، والأرض الولود لم تجدب، والغيوم لم تتخل عن مسيرتها في السماء، والناس تابعوا حيواتهم بفرح، بحزن، بلا مبالاة.. ليس مهماً كيف... المهم أنهم تابعوها كالمعتاد.

تخليت عن البكاء، والمرأة البدائية غارت في عمق الزمن السحيق. وأمام صقيع العالم اللامبالي، شعرت بضعفي كبحار وحيد داهمه الإعصار. وكمثل تصميمه الصامت على المقاومة، أزهر في داخلي إيمان بالغيب أسلمت له أمري. قدّمت القرابين، أشعلت الشموع، والتمست السحر. السحر رحيم دائماً وكريم يعطي مايحسبه العقلاء

محالاً. العقلاء دائماً يصدمون ويوصدون الأبواب. قالوا لي: عقلك مغلول.. وخطأ ماتفعلين.. منذ زمان قضى السحر ومات، فلا تحلمي بالخارق، والأعجوبة لن تحدث أبداً، ولن تستعيديه فعشتار امرأة فريدة في النساء.

وسقط العالم في عطالة مطبقة. عطالة.. عطالة.. والحياة تتراجع وتغور.. تمحي المعالم.. والعالم زلق رجراج، وليس ثمة معالم.. عماء.. هو ذا عماء العالم القديم.. وصمته.

-٤-

صمت وأوصدت بابي. عاد الحزن ودوّم في داخلي كأغنية محملة بأسى قديم.

-٥-

سمعته ينقر على خشب النافذة. بدأ صوته رخيا هامسا، ثم انهمر مثقلا بالمرارة والتفجع والاستسلام والشوق.

فتحت النافذة. كان المطر ينهمر، وقطراته تصفق الأرض وتصخب كنشيد احتفالي يمجد تلاحما كونيا بين الأرض والسماء.

من النافذة اندفع المطر وانسكب فوق وجهي. ارتعش جسمي من لسع برودته، وداهمتني رائحة الأرض المبتلة المنتشية بالماء، والمتألقة بفرح الانبعاث الجديد للحياة.

تركت نافذتي مشرعة.. مددت يدي ووضعت الشريط.

كان الجو كثيفا بالطراوة، وكانت الغرفة مفعمة بتلك القوة الرائعة لامتلاك الحياة بكل إيحاءاتها الممكنة وغير المنتظرة.

تدفق اللحن، فتهاوت الجدران، وشف كل شيء. صرنا في قلب العالم، في الحميم منه.

الاختراق

-١-

في زمن مضى جعت، فذهبت إلى أبي في الحقل وطلبت منه خبزاً. أبي كان حزيناً وحقله أجرد، في وسط الحقل انتصب كما الشاهدة. ناديته، فلم يلتفت. اقتربت منه وواجهته؛ كنا صامتين ومتوحدين بين السماء والأرض.

قال من غير أن ينظر في عيني:

«الأرض تطلب الماء»

«أنا جائع ياأبي أريد خبزاً»

«صلِّ للسماء كي ترسل لنا مطراً»

صليت وأبي

«أيتها السماء امنحينا نعمتك

أرسلي لنا مطراً

أرضنا ولود ولكنها عطشى

المطر يخصبها قمحاً
والقمح يصير خبزاً
ونحن جائعون نشتهي الخبز» .
رفـعت رأسي ونظرت إلى السـمـاء، لم ينزل المطر .
بوابات السـمـاء مـوصـدة، مـغـرقـة البـعـد وصـامـتـة .
تذكرت ليالي الصحو والحكايات واخوتي . في الذاكرة ثمت السماء فسحة مضيئة مفعمة بالحنان وقريبة إلى حد إيهامي بمدّ يدي لأنالها حين أشـاء . نظرت إلى الأرض، عـبـر قـدمي أحسستها تلتحم بي متوترة وعلى وشك الانفجار . أهوى أبي يديه . بصمت قال عجزه ومضى . رأيته يتعثر . لم يكن يائساً .
أبي يأمل دائماً أن السماء لابد أن تشرع أبوابها فتتدانى الأبعاد ويصبح المستحيل ممكناً .
كان تعـباً فقط . تراءى له النوم مطلباً مريحـاً وسهلاً . تعـرى من هـمـومـه . قـذف بهـا في كل اتجـاه واسـتلقى على الأرض . زحـفت هـمـومـه والتـصـقت به . أيقظت الوعي واستطالت وأصبح النوم مطلباً عسيراً ومـرهقـاً . نهض أبي وغفت السماء مطمئنة .
لم أشأ أن أقول عجزي وأمضي، بقيت واقفاً .

-٢-

تململ جوعي. ضممت يدي لأسكته. من بين يدي فر عنيفاً عنيداً وامتد في كل اتجاه. جثوت على ركبتي. لامست التراب وفاجأتني عذوبته. أحطت وسطي بيدي. كان جوفي خاوياً، تلويّت. الجوع جعلني أتلوى وأدور حول نفسي كلولب. كل مافي الأرض من خشونة ومقاومة، لَطُفَ واستكان واستحال إلى كيان جديد من الوداعة والمحبة. وكما يثقب اللولب الأشياء حين يلتفّ، هكذا ثقبت الأرض بجسمي. اخترقتها كما اللولب حين يدور في الأخشاب. ولجت عالماً كتيماً من الصمت واللزوجة والعتمة فأرعشني الخوف ولكني استشعرت الرطوبة والانتعاش.

أخذني فرح الانطلاق وجنونه فتابعت أدور وأدور وأوغل في الأعماق. أعتقت رغباتي واحدة إثر الأخرى. وحده الانطلاق المجنون سكنني، ولم يعد في وسع شيء أن يوقف جنوني.

-٣-

توقفت. حدث ذلك فجأة. حين احتواني هيولياً بارداً
توقفت. تغلغل، وامتلأت حواسي به. تذوقته، لمسته،
سمعت هسيسه المدغدغ، وصحت فرحاً: «هو ذا الماء».
لثمته؛ رشفت عذوبته فاندفع كمارد. ومن حيث نفذت
أنا نفر هو وغمر وجه الأرض.
أسلمت الأرض نفسها فولج في ثناياها حتى الارتواء وتألق
كل شيء.

-٤-

من الأعماق سمعت وقع أقدام، أرهفت أذني، عرفت أنها
وقع أقدام صبي. اقترب الصبي من الماء. على وجه الماء لمح
قرص الشمس يتوهج ومن ورائه رأى السماء مزيجاً من
الأزرق والبني والبنفسجي. من الأعماق سمعته يصيح بفرح:
«انظروا السماء: هنا السماء: أراها هنا في الماء.. وعلى
الأرض من غير أن أرفع عيني إلى أعلى»
ضحك. في الماء تأرجح وجهه بعينين مدهوشتين فرحتين.
ضحكت أنا الآخر. ثم أغمضت عيني وغفوت في أعماق
الأرض.

مرثية للكبار

-١- العمــود

قال سامر يوماً لأمه : أريد أن أسافر ياأمي .

فأفهمته أمه أن السفر للكبار وأنه سيسافر حين يكبر .

حينئذ سكت سامر ، ولكنه بقي يحب السفر وتمنى أن يكون عـصـفـوراً ليطيـر ويرى البـحـر والغـابات وبلاد الـهنود الحمر .

في يوم ثان قال سامر لأمه : أخبرنا المعلم في المدرسة أن السفر مفيد ، وأن بإمكان الصغار أن يسافروا أيضاً .

فـأفـهـمـتـه أمـه أن مـعلمـاً يقـول مـثل هذا لابد وأنه مجنون ، لأن السفر محـفـوف بالمخاطر ولا يجوز أن يُعرض الصغار لهذه المخاطر .

في يوم ثالث ذهب سـامـر إلى السـاحـة حـيث تنطلق السـيارات المسافـرة ، وأخبر رجلاً ينادي على المسـافـرين أنه

يرغب أن يسافر. وحين سأله إلى أين؟ أجابه بأنه لايعلم ولكنه فقط يريد أن يسافر.

نظر الرجل إليه باستغراب ثم مدّ يده يطلب نقوداً فأخبره سامر أنه لايملك نقوداً. عندئذٍ نهره الرجل قائلاً عنه إنه ولد مخبول.

في الأيام التالية صار سامر يذهب إلى الساحة يراقب السيارات والحقائب والمسافرين، وحين تنطلق إحدى السيارات يرافقها ببصره ولا يعود إلا حين تنطلق أخرى، فيرافق هذه من جديد وحين ينتهي رتل السيارات يعود إلى بيته فتلقاه أمه غاضبة، وأحياناً تضربه، وفي المرة الأخيرة هددت بأن تحبسه، ويومها بكى وأوى إلى الفراش من غير طعام.

استيقظ في الصباح، فوجد نفسه عموداً منتصباً على طريق طويل مغسولاً بماء المطر يلمع تحت أشعة الشمس الصباحية. نظر حوله، لم يكن ثمة غير طريق طويل وأراضٍ شاسعة لاحدود لها، مغبرة زرقاء ورمادية، ورأى أعمدة أخرى كثيرة منتصبة على جانبي الطريقَ تشده إليها أسلاك دقيقة. نظر إليها بحنان ومودة بالغتين، وقال في نفسه: كثيرون هم الأطفال الذين يُضربون ويحبسون لأنهم يحبون السفر.

وعلى الطريق الطويل انطلقت أعداد كبيرة من السيارات ذاهبة آيبة وكان بإمكانه أن يشرف عليها ويعدّها وينطلق معها.

-٢- البحـــر

كـــان من عـــادة البـــحـــر أن يراقب الأطفـــال على الشواطىء، وكان يشعر بكثير من السعادة حين يعبثون برماله ويجمعون أصدافه الصغيرة، ويتراشقون بمائه. وكان يحزنه بشدة بكاء بعض الصغار خوفاً من مياهه، ويتمنى لو يقدر على الكلام ليقول لهؤلاء الصغار الخائفين بأنه يحتضن أجسامهم بلطف بالغ، وإن طباعه رقيقة جداً، وإنه لا يثور دون سبب كما يزعم الكبار.

في أحد الأيام أراد أن يدخل المتعة إلى قلوب أحبائه الصغار فتراجع قليلا إلى الوراء ليسمح للأطفال أن يمرحوا في مساحات كبيرة من الرمال وليجمعوا أصدافه التي كانت مختبئة في الماء، ولكنه لم يكد يتراجع حتى اندفع الكبار بآلات حديدية خدشت رماله، وتدحرجت الأحجار الكبيرة تنتقل فوق شاطئه، فتأوهت الرمال والأصداف، وبكى الأطفال وابتعدوا مذعورين.

ثار البحر وغضب، فارتفعت أمواجه، وعادت مياهه

جارفة هادرة. غرقت الآلات واختفت الحجارة، وعاد الأطفال يلعبون آمنين على شاطئه.

-٣- الفزاعة

في زمن مضى، جاع الأطفال في أول الصيف، فذهبوا إلى آبائهم الذين يحصدون القمح في الحقول، وطلبوا منهم أن يطعموهم خبزا. ورجا الآباء أطفالهم أن يصبروا على الجوع حتى آخر الموسم. وأصر الأطفال على طلب الخبز وبدأوا يصرخون.

حينئذ تقدم أشخاص ضخام، ثيابهم نظيفة، لهم كروش، وبيد كل منهم عصا مدهونة تلمع تحت أشعة الشمس. قالوا للأطفال:

- ليس من حقكم أن تأكلوا، فأنتم لم تعملوا.

واحتج الأطفال بأن الذين في سنهم يلعبون ويذهبون إلى المدرسة، وأن آباءهم اشتغلوا أياما طوالا، حتى سال عرقهم وبلل التراب، وأن الأشخاص ذوي الكروش وحدهم الذين يستريحون طوال العام ويبتلعون جميع المواسم.

هز الأشخاص الضخام عصيهم وضربوا

الأطفال، وحينئذ هربوا وجلسوا تحت ظل شجرة وبكوا، ثم ناموا جائعين.

في الليل جفت أجسام الأطفال، وتحولت سيقانهم وسواعدهم إلى عيدان يابسة.

وفي الصباح أخذهم الرجال الضخام ووضعوهم فوق البيادر الكبيرة فزاعات للعصافير.

فوجئت جماعات العصافير بشخص يقف فوق كل بيدر فاتحا يديه وساقيه، يرتدي ثيابا فضفاضة يعبث بها الهواء. وقفت العصافير بعيدة، وخشيت أن تقترب. وحين استبد الجوع بالعصافير، غامر بعضها وتقدم والتقط بعض الحبات وطار بسرعة.

لم تحرك الفزاعات سيقانها أو سواعدها. بقيت ثابتة، وقررت أن تترك العصافير تأكل، فقد خافت عليها إن جاعت أن تجف في الليل، ولايعود بإمكان أحد أن يسمع صوتها.

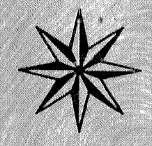
عاودت العصافير الكرة. وحين لم تتحرك الفزاعات، تقدمت مطمئنة من البيدر تلتقط الحب بهدوء. وخطر لعصفور جريء أن يقف على يد الفزاعة فلم تقبض عليه، وتجرأ آخر ووقف فوق رأسها وغرد.

ومنذ ذلك الوقت تحب العصافير الفزاعات.

المحتوى

العائد	٣
تداعيات صباحية	١١
الصمت والصراخ	١٩
الحب والبحر	٢٧
شمس ومطر	٣٣
اللحن المنسي	٣٩
الغفوة	٤٧
دردشة مسائية	٥٣
يوم خريفي	٥٧
شرق : غرب	٦١
حدث في أوائل الربيع	٦٤
أنشودة للموت . . . أنشودة للحياة	٧١
الاختراق	٧٨
مرثية للكبار	٨٢

٣٥٠٠ ط ١/١٠/١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـق - ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

٥٠ ل.س

في الأقطار الع

١٠٠